

رأى في

...

النفس كسير المنهجاري

عند

عبد القاهر الجرجاني

بقلم : د. أحمد حمدي الحوي

من غير العرب دور بارز في اللغة العربية وآدابها. وقد وضع هذا الدور منذ أن دخلوا في دين الله أفواجاً، وأقبلوا على العربية يتعلمونها لدوام دينية وأخرى دنيوية.

وتحت راية الإسلام ظهرت هذه الجمهرة التي أسدت خدمات جليلة للعربية لغة وأدباً وبلاغة. ومن هؤلاء عبد القاهر الجرجاني^(١) الذي ولد في أسرة فارسية بمدينة جرجان^(٢). وتوفي بها عام ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ^(٣)، تاركاً عدة كتب باللغة القيمة منها أسرار البلاغة، دلائل الإعجاز، كتاب الجمل المعروف بـ (جورجانية) نسبة إلى مسقط رأسه، المغني في شرح إيضاح أبي علي، مختصر المغني أو المقتصد، العمدة في الصرف، شرح الجمل في توضيح كتاب الجمل السابق ذكره^(٤).

هذه الكتب التي تناولت علوم النحو والبلاغة والنقد تدل على أن عبد القاهر كان متكاملًا في المعرفة من ناحية وسليماً في اللوق من ناحية أخرى.

وتكامل المعرفة وسلامة اللوق لدى عبد القاهر يعتمدان على أساس ديني

بالدرجة الأولى؛ إذ أن الإسلام قد خلقه خلقاً جديداً إلى جانب اعتماد فطري طيب. ولا غربة في الاثنين، فالإسلام بالأصل هو دين القطرة؛ ومن خلال قطرة عبد القاهر السليمة وإسلامه الحسن، وعقله المنظم جاء تفكير عبد القاهر في كتاباته منهجياً وعلمياً وعقائياً مما أعطاه حتى الريادة فيها كتب.

والعقل عند عبد القاهر أمر مهم، فهو الذي يصطنع الفكرة وينظمها وينسقها، وبعد أن تأخذ الفكرة مكانها من العقل في ترتيب وتنسيق تهيئ على القلم كتابة، وعلى اللسان شعراً وخطابة.

— ٢ —

وبالنسبة لقضية اللوق، يذهب عبد القاهر في التفرقة بين الاقتناع بالنظم والاقتناع بالحال إلى القول^(٥):

«وهذا موضع في غاية اللطف لا يبين إلا إذا كان المتصفح للكلام حساساً يعرف وحي طبع الشعر، وعني حركته التي هي كالمس، وكمسرى النفس في النفس».

التفكير المنهجي

وسيلة إلى إدراك الجمال من جهة، وأن الذكاء اللامع يؤدي إلى تبين الفروق الدقيقة التي تتنازعها العبارات، وتختلف من خلالها المعاني من جهة أخرى .

وهو كواضع لأسس المنهج التحليلي في دراسة البيان أو المعاني العقلية لم يتخل عنه الذوق الأدبي الذي يجعل القارئ متمسكاً لصفات الجمال في العمل الأدبي عندما لا تجدي القاعدة ولا ينفع القياس، يقول في ذلك : « أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر، ولو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أعوانها المجاورة في الماضي لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبداً، أو لا تحسن أبداً» .

— ٣ —

ومن سلامة الذوق عند عبد القادر أنه قاوم تيار اللغظية أشد مقاومة فتراه يذكر^(٨) (...الألفاظ محرم للمعاني) كما أنه يرى^(٩) : (... أن في كلام المتأخرين

أما عن عدم هذا الذوق الموهوب فلا فائدة ترجى. يقول^(١٠) : (... واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد لديه قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يوصى إليه من الحسن واللطف أصلاً، وحتى يختلف الحال عليه، عند تأمل الكلام، فيجد الأريحية تارة، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا عجبته عجب، وإذا نبته لموضع المزية انتبه).

«فأما من كانت الخالان والوجهان عنده أبداً على سواء، وكان لا يتفقد من أمر النظم إلا الصحة المطلقة، وإلا إعراباً ظاهراً، فما أقل ما يجدي الكلام معه، فليكن مناجه صفته بمنزلة من عدم الإحساس بوزن الشعر، والذوق الذي يقيمه به، والطبع الذي يميز صحيحه من مكسوره، ومزاحفه من سائه، وما يخرج من البحر مما لم يخرج منه، في أنك لا تصدى له، ولا تتكلف تعريفة، لعلمك أنه قد عدم الأداة التي معها تعرف، والحاسة التي بها تهجد»^(١١).

إذن فبعد القاهرة يجعل الذوق والقطرة

كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع، أن ينسى أنه يتكلم ليهمهم، ويقول لبيّن، ويغفل إليه أنه إذا جمع بين ألقام البديع في بيت فلا ضرر أن يقع ما عناه في عيباء، وأن يوقع السامع من طلبه عبط عشواء، وربما طمس بكثرة ما يتكلمه على المعنى وألفسده، كمن يثقل العروس بأصناف الحلى حتى يثاقا من ذلك مكروه في نفسها.

وعند عبد القاهر أن المثل الذي يجب أن يجتدي ليس أصحاب السجع، بل أبا عمرو الجاحظ في مقدمات كتبه. وهنا يقول: ^(١١)

«أنك لا تجد تجنيهاً مقبولاً، ولا مسجماً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبغى به بديلاً ولا تجده عنه حولا، ومن هنا كان أحل تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، وقع من غير قصد من التكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه، أو ما هو الحسن ملائمته — وإن كان مطلوباً — بهذه المترلة وفي هذه الصورة».

وهنا نقول إن عبد القاهر قد وصل في

العلوم اللغوية إلى مذهب يشهد لصاحبه بعبقريته لغوية متقطعة النظر، وعمل أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك (دلائل الاعجاز).

فالكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيض بها الكلام غرضاً من أغراضه في الأخبار والأمر والنهي والتعجب، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا ميل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة وبناء لفظة على لفظة، وليس بين اللفظتين تقاضل في الدلالة، حتى تكون إحدهما أدل على معناها الذي وضعت له من الأخرى.

والألفاظ لا تقاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وعلاقتها في ملائمة معنى اللفظة كمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تتعلق بصريح اللفظ، وما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروق وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ^(١٢).

هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى :

«وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء

التفكير المنهجي

كذلك بما يخصها، ثم أن قيل «وغيض الماء» فجاء الفعل مبنياً للمجهول، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يفيض إلا بأمر آمر، وقدره قادر، ثم تأكيد ذلك وتقديمه بقوله تعالى (وقضي الأمر) ثم ذكر ما هو غائده هذه الأمور؟ وهو «استوت على الجودي» ثم إضمار السببة قبل الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابل (قيل) في الخاتمة: «قيل» في الفاتحة.

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملّوك بالاعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيئة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب!

مثل هذا الأسلوب التحليلي يوصل عبد القاهر إلى ما يريد من تقرير ما أسلف من أن الشأن للنظم كاملاً، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم.. وهنا نقول: إن عبد القاهر قد وصل في العلوم اللغوية إلى مذهب يشهد لصاحبه بعقيدة لغوية متقطعة النظير؛ وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في ادراك (دلائل

أقلمي، وغيض الماء وقضي الأمر، واستوت على الجودي. وقيل بُعداً للقوم الظالمين». فتجل لك منها الاعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الفاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذا الكلام بعضاً ببعض، وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابطة؟.

وهكذا إلى أن تستقر بها إلى آخرها، وأن الفضل نتائج ما بينها، وحصل من مجموعها؟

إذا شككت فاعمل: هل ترى لقطة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها، وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانها في الآية؟ قل (ابلمي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف بالشك في ذلك؟ ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن توديت الأرض ثم أمرت، ثم كان النداء بـ «يا» دون «أي» نحو يابئنا الأرض، ثم إضافة الماء إلى المكان، دون أن يقال ابلمي الماء، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها، نداء السماء وأمرها

الاعجاز).

ومذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا في أيامنا هذه هو مذهب العالم السويسري الكبير فردناندي سوسير المتوفي ١٩١٣ م. ولا يهتأ من هذا المذهب الخطير إلا طريقة استخدامه كأسس لنتج لغوي «فيلولوجي» في نقد التصوص^(١٢).

— ٤ —

لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات. إذ يقول: ^(١٣) «اعلم أن هنا أصلاً أنت ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي من أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف بها بينا فوائد. وهذا علم شريف وأصل عظيم، والدليل على ذلك أننا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى مالا يشك عاقل في استحالة، وهو أن يكون قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها

بها، حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا فعل ويشعل لما كنا نعرف الخبر في نفسه ومن أصله، ولو لم يكونوا قد قالوا الفعل لما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا، وحتى لو لم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنا نجعل معانيها، فلا نعقل نقياً ولا نبيهاً ولا استظهاراً ولا استثناء. كيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم، فبحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغبر معلوم ولأن المواضعة كالإشارة، فكما أنك إذا قلت نخذ ذلك لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه، ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها. كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له، ومن هذا الذي يشك أننا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل إلا من أساميها ؟ لو كان ذلك مساعاً في العقل تكون قد شاهدته أو ذكر ذلك بصفة. وإذا قد عرفت هذه الجملة فاعلم أن معاني الكلام كلها معان لا تتصور إلا فيما بين شيئين، والأصل والأول هو الخبر وإذا أحسكت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع. ومن الثابت في العقول والقائم في النفوس أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه. ومن ذلك امتنع أن يكون لك

التفكير المنهجي

عبد القاهر في ذلك^(١٢) ...

«هذا هو السبيل فلتستباجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً، ونخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو، قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساد، أو وصف بجزئية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك الجزئية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه».

وما سبق يتضح أن منهج هذا المفكر العميق الدقيق هو منهج النقد اللغوي، بل منهج النحو، على أن يكون مفهومًا من النحو أنه العلم الذي يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء. يقول عبد القاهر في ذلك^(١٣): «إذا نظرنا في ذلك علمنا أنه لا محصور لما غير أن نعلم إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعول، أو نعلم إلى اسمين فتجعل أحدهما غيراً عن الآخر، أو نتبع

نصده إلى فعل من غير أن نريد إسناده إلى شيء. وكنت إذا قلت «اضرب» لم تستطع أن تريد منه معنى في نفسك من غير أن تريد الخبر به عن شيء مظهر أو مقدر، وكان لفظك به — إذا أنت لم ترد ذلك — وصوت تصوته سواء».

هنا تستبين فلسفة عبد القاهر اللغوية العميقة. وعنها صدرت كل آرائه في نقد النصوص، فهو يرى أن الالفاظ لم توضع لتعين الأشياء المتعينة بدواتها، وإنما وضعت لتستعمل في الاخبار عن تلك الأشياء^(١٤). بصفة أو حدث أو علاقة. فنحن لا نقول زيد إلا إذا أردنا أن نخبر عنه بشيء ومعنى ذلك أن الالفاظ ليست هي المهم في اللغة بل هي مجموعة العلاقات التي ينبغي أن تقام بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية وتلك العلاقات هي المعاني المتباينة التي تعبر عنها أو تشير إليها.

— ٥ —

كان مقياس النقد عند عبد القاهر هو نظم الكلام: ذلك أن النظم هو الذي يقيم العلاقات بين الأشياء. هذه العلاقات التي وضعت اللغات من أجل التعبير عنها يقول

وقول أبي تمام :

يدي لمن شاء رهن لم يلق جرعا
من راحلك دوى ما الصاب والعسل

فاسد في النظم، سبى في التأليف، وسبب ذلك أن الشاعر لم يترخ معاني النحوقا بين الكلم، بل قدم وأخر، وحذف أو أضمر، أو فعل ما ليس له أن يصنع، وما لا يسوغه له قوانين هذا العلم.

وكذا ثبت أن الصاد ناشئ من عدم توخي معاني النحر وأحكامها فيما بين الكلم ثبت أن المزية والفضيلة في توخي معانيه وأحكامه.

— ٦ —

كان عبد القاهر حريصاً على أن يوضح أمر المعاني وكيف تتفق وتختلف؟ ومن أين تجتمع وتفرق؟ ويفصل أجناسها وأنواعها، ويتبع خاصها ومشاعها، وأنه يبين أحوالها في كرم منصبا من العقل، وقرب رحمها منه، أو بعدها عنه، وأن يوضح كيف أن من الكلام ما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز الذي تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات، وجل الممول في

المادة ٤٣

الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلاً منه، أو نقيضاً باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزاً، أو توخي في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نقيضاً أو استظهاراً أو تقييداً، فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك. أو تريد في فطين أن تجعل أحدها شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى، أو بعد اسم من الأسماء التي ضمننت معنى ذلك الحرف وعلى هذا القياس «يكون تسلسل الكلام».

وحتى تسبين هذه الفكرة نرى عبد القاهر يدل على أن أحداً لا يخالف في أن قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا ملوكا
أبو أمه حمي أبوه يقاوبه
وقول المتنبي :

ولذا اسم أظطبة العيون جطونها
من أنها عمل السيوف عوامل
الطيب أنت، إذا أصابك، طيه
والماء أنت، إذا اغسلت، المغسل
وفاء كما كالربع أشجاء طاسمه
بأن تسعدا، والدمع أشقاء ساجمه

أن يقال : إنه صدق، وأن ما أثبتته ثابت وما نفاه منفي ..

وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يحصر إلا تقريباً، ولا يحاط به ونحياً على درجات.

وليس التخيل في واقع الأمر سوى تصوير لإحساس الأديب ومشاعره، وبه نستطيع أن نعرف وقع الشيء على نفسه، ومدى انفعال عواطفه به، والميزان الذي ينبغي أن يقاس به هو معرفة المدى الذي استطاع التخيل أن يصور عواطف الأديب ووجدانه، وإلى أي مدى كان الأديب صادق الإحساس، قوي الانفعال (١٨).



— ٧ —

إذا كان عبد القاهر قد اهتدى إلى فكرة التنظيم، ورأى أن البلاغة تدور عليها، فإن

شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته، ويرفع من قدره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة، فلها — مادامت الصورة محفوظة، وأثر الصنعة باقياً — قيمة تغلو، ومترلة تملو حتى إذا خالت الأيام أصحابها، وسلبتها جلالها المستفاد من طريق العرض، فلم يبق إلا المادة العادية من التصوير سقطت قيمتها، وانغصت رتبها (١٩).

وهذا من عبد القاهر هدف كبير كان ذا قدرة على تحقيقه بل حقق بالتأكيد جزءاً كبيراً منه فيما ساقه من حديث عن الاستعارة والتشبيه والكتابة والمجاز. فقد أكثر من الموازنات وبيان أصول المعاني وفروعها.

فذكر أن المعاني تنقسم أولاً إلى قسمين عقلي وتخيلي. ومن العقلي عقل صحيح مجراه في الشعر والكتابة والخطابة مجرى الأدلة التي يستنبطها العقلاء، ولذلك نجد الأكثر من هذا الجنس مترعاً من أحاديث الرسول وكلام الصحابة، ومتقولاً من آثار السلف الذين شأنهم الصدق، أو ترى له أصلاً في الأمثال القديمة والحكم المأثورة عن القدماء .. وأما التخيلي فهو الذي لا يمكن

هذه الفكرة لها فروع كثيرة تنطوي تحنها من مسائل التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتذكير، وغير ذلك من الطرق التي نصاب عليها العبارة.

وعلى الرغم من أن جهود العلماء قبله كانت قد وصلت إلى مرحلة لا بأس بها فيما يتصل بأمر البلاغة، إلا أن عبد القاهر اجتهد جهداً فائقاً في بناء صرح البلاغة العربية. وما هو ذا يصف حال البلاغة قبل عصره، وفي عصره، فيقول (١٩) :

«واعلم أنك لا ترى في الدنيا علماً قد جرى الأمر فيه بديناً وأخيراً على ما جرى عليه في علم الفصاحة والبيان، أما البديء فهو أنك لا ترى نوعاً من أنواع العلوم إلا وإذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس وحدة العبارة فيه أكثر من الإشارة، والتصريح أغلب من التلويح، والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا، فأنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جلّه أو كله رمزاً ووحياً وكتابة وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفتن له إلا من غلغل الفكر وأدقّ

النظر، ومن يرجع من طبعه إلى ألعينه يقوى معها الغامض ويصل بها إلى الخفى، حتى كان حراماً أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها. وبإدابة الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن الإفصاح بها حرام، وذكرها إلا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ.

وأما الأخير فهو أنا لم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاماً للأولين، ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضاً من غير أن يعرفوا له معنى، ويقفوا منه على غرض صحيح، ويكون عندهم أن يسألوا عنه بيان له وتفسير إلا علم الفصاحة، فإنك ترى طبقات من الناس يتداولون فيها بينهم ألفاظاً للتقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، أو يستطيعوا أن يسألوا عنها وأن يذكروا لها تفسيراً بصح.

فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون إذا هم تكلموا في مزية كلام : على كلام أن ذلك يكون بجزالة اللفظ، وإذا تكلموا في زيادة نظم على نظم : أن ذلك يكون

التفكير المنهجي



• الدكتور طه حسين •

لوقوعه على طريقة مخصوصة، وعلى وجه دون وجه، ثم لا نجدهم يفسرون الجزالة شيء. ويقولون في المراد بالطريقة والوجه ما يحل منه السامع بظلاله.

لمل عبد القاهر قد تنال إلى حد قيا ذهب إليه، فما من شك أنه قرأ لمن سبقوه وتأثر بهم، ونقل عنهم. ولكنه في كل هذه الحالات الشخصية القوية التي تظر وتنقد يصل إلى آراء لم يصل إليها من سبقوه، ولا يقف عند ما توقفوا عنده مما جعله عالماً مبتكراً^(١١). بل إنه نجح نجاحاً كاملاً في لتوفيق بين التفكير الأدبي النعوقي، والمنهج الفلسفي العلمي^(١٢). وذلك باستـ... الذوق إلى إدراك الجمال، ثم محاولة تصنيف ما يهدي إليه الذوق، ووضع في إطار علمي ذي قواعد وقوانين^(١٣).

شاء عبد القاهر لنفسه بهذا التفكير المنهجي متقدم في عصره وسابق على زوجه أن يكون مجالاً حصياً لدراسة القلمي والمتحدثين، فنهضوا يسلطون النظر ويقلبونه فيها قدم هذا الرجل من نظرات عبقة.

فقد فضل الأستاذ الشيخ محمد عبده

كتاني دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة عن... عداها من كتب أخرى في البلاغة لا تؤدي إلا إلى مناقشات لفظية وجدل عقيم لا طائل منه.

ورأى الأستاذ الدكتور طه حسين أن عبد القاهر قد وفق بين البيان العربي واليواني. واعتبرهما بحق أغنى ما كتب في البيان العربي.

ويذهب الأستاذ أمين الحولي إلى أن عبد القاهر، متكلم فلسفي نادرة... وهو أديب

خطابي يقول بإنكار عبد القاهر لما رآه
 الجاحظ من أهمية الألفاظ، ثم ثورته على
 مذهب العسكري الذي يرى جودة الكلام
 تعود إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل.
 وبعد الأستاذ الدكتور بدوي طبانة عيد
 القاهر باقداً أديباً بل في طليعة النقاد العرب
 يسا يشرح الأستاذ الدكتور درويش الخدي
 نظرية عبد القاهر في النظم وأن لها هدفاً
 أولها بيان أن جوهر الكلام هو المعنى
 القائم في النفس، وثانيها ربط البلاغة
 بالإعجاز.



• الشيخ محمد عبد •

أما الأستاذ الدكتور أحمد أحمد
 بدوي، فينتهي في الكتاب الذي خصه
 لعبد القاهر — فأفاد به فائدة كبرى — إلى
 أنه الشخصية المبكرة العميقة التفكير التي
 كان لجهودها أثر كبير في البلاغة العربية.
 أما الأستاذ محمد عطف الله، فيرى أن
 عبد القاهر قد تأثر بمن سبقوه — في بعض
 نواحيه الفكرية في البلاغة والنقد —
 بالثقافة الإغريقية ولا سيما بحوث أرسطو
 وإن كان هذا التأثير لا يتنافى الأصالة من
 ناحية ولا ينفي ص عبد القاهر صفة العالم
 المبتكر^(٢٢) من ناحية أخرى.

صانع كلام ونالقة تارة أخرى.

ويذكر الأستاذ إبراهيم مصطفى أن عبد
 القاهر رسم في كتابه دلائل الاعجاز طريقاً
 جديداً للبحث الحوي تجاوز أواخر الكلم
 وعلامات الإعراب. وبين أن للكلام
 (نظماً)، وأن رعاية هذا النظم واتاع قوابله
 هي السبل إلى الإبانة والإفهام وأنه إذا
 عدل بالكلام عن سب هذا النظم لم يكن
 مفهماً معناه، ولا دال على ما يراد منه.
 وكتب الأستاذ الدكتور محمد عبد المع

التفكير المنهجي

أثر كل منها في عبد القاهر تأثيراً بالغاً. الأول من حيث التدريس والتوجيه، والثاني بالقدوة العلمية والأسوة الحسنة. هذا في الوقت الذي كان عبد القاهر يواصل تصفيف نفسه بنفسه فيقرأ أمهات الكتب.

وعن الأصالة : فقد سعى عبد القاهر إلى أن يكون عالماً عقلياً، ومن ثم فإن فلسفته تكن في بيان هذه الأبعاد الثلاثة: البعد الحسي والبعد العقلي والبعد الدوقي. ومن يطالع كتب عبد القاهر يدرك بجلاء أن قمة خيطاً سارياً في كل إنتاجه هو «العقل» وهذا الخيط هو الرباط الذي يربط أفكاره بعضها ببعض سواء أكانت نقدية أم بلاغية أم نحوية.

وعلى ذلك فلا ينبغي أن نقسم تقسيماً حاسماً شخصية الرجل أو بالأحرى فكره إلى ثلاثة أقسام نقدية وبلاغية ونحوية. إن تقسيماً هذا شأنه لا يعبر البتة عن طبيعة العلوم النظرية في زمانه. فلقد كانت دراسة العلوم في هذا الوقت تقوم على مبدأ التكامل في المعرفة. ولنا في أبي الريحان البيروني من أهل خوارزم الذي كتب في العلوم والرياضة

هكذا اختلقت الآراء فيما يتصل بعبد القاهر ناقداً كان أم بلاغياً أم ناحياً. والقول القصل هو أن الآراء التي وصل إليها عبد القاهر ما نجمت إلا عن تفكير منهجي تمتع به الرجل. هذا التفكير المنهجي له أساسان هما التأثير والأصالة.

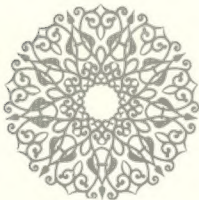
فما يتصل بالتأثير لا شك أن عبد القاهر كشخصية عاشت وماتت في جرجان لابد وأن يكون قد تأثر أولاً بخصائص جنة الآري من حيث القدرة على طول الفكرة، واجتهاد الرأي، وطول الخطوة. (٢١) ثم ساعدته بيئة بما لها من طبيعة جميلة ومناظر متنوعة وطقس متميز ورسوخ قدم في العلم وحن حظ في تخريج طائفة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين على الاستمرار في طلب العلم واكتساب المعرفة.



ولم يكن عبد القاهر بطاقته المتأججة، فأغذ ينميا ويصقلها على يد شيوخ العلم في بلده مثل أبي الحسن محمد بن الحسن بن عبد الوارث القارسي النحوي القيم بجرجان وأبي الحسن بن عبد العزيز الجرجاني. وقد

وفي النهاية فإن إبداع عبد القاهر الجرجاني سواء في إنتاجه أم في منهجه قد جاء في جملته نتاجاً للإسلام الحنيف. فقد حسن عمله لأن إسلامه قد حسن. ولا أدل على ذلك من أن كتابه دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة قد قاما في الأصل على دراسات قرآنية.

والتاريخ واللغة والقصص والأمثال والحكم والتراجم الدليل على ذلك. هكذا كان رجال الفكر والثقافة في القرون الأولى من الهجرة، فلا عجب أن نجد عبد القاهر ينحو نحوهم، فلب عليه النحو فقلب بالنحوي، وعدّ من أكابر النحويين. وعلى معاني النحو أقام نظريته في البلاغة والبيان.



- (١) هو عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد المرحلي.
- (٢) مدينة كبيرة ومشهورة تقع بين طرستان وخراسان، وأهلها أحسن وقاراً، وأكثر مروءة وسماراً ... يأخذون أنفسهم بالثاني والأخلاق المندوبة.
- (٣) محمد معين (دكتور) فوهك معين ج ٥، ص ١٣٤٤، (زهرة خاتوني) (دكتور) فوهك أدبيات فارسي دري، ص ١٦١، ١٦١.
- (٤) المرجعان السابقان، نفس الصفحات.
- (٥) عبد القاهر المرحلي : أسرار البلاغة ص ٢٦٦، الطبعة الثالثة.
- (٦) عبد القاهر المرحلي : دلائل الإعجاز ص ٢٢٥ وما بعدها، طبع القاهرة ١٣٣١ هـ.
- (٧) أحمد أحمد بدوي (دكتور) : عبد القاهر المرحلي : ص ٢٨٠ وما بعدها، الطبعة الثانية.
- (٨) أسرار البلاغة ص ٥.
- (٩) المرجع السابق ص ٦.
- (١٠) المرجع السابق ص ٧.
- (١١) دلائل الإعجاز ص ٣٥ - ٣٨.
- (١٢) محمد متقوي (دكتور) : النقد المنهجي عند العرب ص ٣٣٥.
- (١٣) دلائل الإعجاز : ص ٤٩.
- (١٤) المرجع السابق ص ٤٤.
- (١٥) أسرار البلاغة ص ١٩ وما بعدها.
- (١٦) المرجع السابق نفس الصفحة.
- (١٧) أحمد أحمد بدوي (دكتور) : المرجع السابق ص ٢٦٥.
- (١٨) دلائل الإعجاز ص ٣١٩ - ٣٥٠.
- (١٩) محمد خلف الله : من الوجبة النفسية، في دراسة الأدب ونقد ص ١٢٥، القاهرة، طبع القاهرة ١٩٤٧ م.
- (٢٠) المرجع السابق نفس الصفحة.
- (٢١) أحمد أحمد بدوي (دكتور) : المرجع السابق، ٣٧٦.
- (٢٢) المرجع السابق : ص ٣٩٠ وما بعدها.
- (٢٣) المرجع السابق : نفس الصفحات.
- (٢٤) المحاضر : البيان والبيان : جزء ٣ ص ٢٨، تحقيق عبد السلام حاروت.

